كلمات في التأبين !

المرحوم الأستاذ محمد كرد علي عضو المجمع (١)

للأستاذ الدكتور منصور فهمي نائب الرئيس

سادتي :

نجتمع اليوم لتحية زميلين فقيدين اشتركا في أعمال المجمع لخدمة اللغة العربية وأفاداها بما نشراه وأبقياه من آثارهما الأدبية المباركة .

ولا نهدف من هذا الاجتماع إلى تحليل آثارهما وبحثها بحثا وافيا شافيا ؛ لكننا نهدف إلى إرسال تحية من المجمع لرابطة وثيقة جمعت بينهما وبينه ، ولزمالة تعاونت في خدمة اللغة والأدب تعاونا مشكورا .

وإني إذ أتقدم بالتحية للمرحوم الأستاذ كرد علي فذلك لسبقه إلى جوار الله قبل زميله . وأشير بكلمتي الموجزة إلى ترجمة مختصرة لحياة المرحوم كرد علي وإلى صورة من أخلاقه ، وإلى نظرة الناس المجملة لحياته السياسية ، وإلى تقديرهم إياه من الناحية العلمية والأدبية ، ثم أذكر أهم مؤلفاته وما أخرجه من الكتب :

ولد المرحوم محمد كرد علي في مدينة دمشق سنة ١٨٧٦ ميلادية . وتوفي بها في النصف الأول من العام الفائت عن نيف وثمانين عاما .

وكان جده كرديا يشتغل بالتجارة ، ونزح من بلدة السليمانية في شمال العراق إلى دمشق وسكن فيها من نحو قرن ونصف ، وتملك بفوطتها أرضا محدودة المساحة ، أصاب منها فقيدنا حصة لا تغني ، مما حفزه إلى الأخذ بأسباب العمل منذ شبابه الباكر .

وكرد علي الذي سميت به أسرة الفقيد هو تركيب فارسي ، ويقصد به : علي الكردي .

وكانت أم الفقيد شركسية من « قفقاسيا » . وكان يطيب له أن يقول بأسلوب لا يخلو من الاعتزاز والتبسط : « أنا آري : فوالدتي شركسية وجدي كردي » .

ودرس الفقيد في مدرسة دمشق الابتدائية الحكومية ثم في المدرسة العسكرية الإعدادية ، ثم في المدرسة العازرية الفرنسية ، ونال من تعليمها ما يناله الطالب في المدارس الثانوية ؛ لكن ملازمته للشيخ طاهر الجزائري وتلمذته في اللغة للشيخ محمد المبارك ، وحبه الفطري المشبوب للقراءة : كل ذلك كان من الدوافع الشديدة إلى مراجعته للمخطوطات القديمة ، واطلاعه على كتب الأدب العربي ، واتجاهه إلى وفرة التحصيل والكتابة والتأليف .

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامه المجمع لتأبين المرحوم الأستاذ محمد كرد علي عضو المجمع ، من سوريا في ٢٩ من ربيع الآخر ١٣٧٣هـ (الموافق ٥ من يناير ١٩٥٤ م) .

ولمناسبة ذلك كتب عن نفسه ما يلي :
استصحبتني والدتي وأنا في السادسة لنزور أسرة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوي في زقاق (النارنجة بمحلة القيمرية بدمشق) ، فأدخلوها القاعة البرانية التي يجلس فيها الشيخ ، ووقع نظري لأول مرة على رفوف في الحيطان ، مصفوف عليها مجلدات ، فشهقت متعجبا مما نظرت ، وسألت والدتي عن هذه الأشياء التي رأيتها على الجدران .

فقالت : « كتب يقرأ فيها العلماء » .

فأعجبني هذا المنظر الطريف ، وقلت لأمي : أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة .
(انظر ص ١٠ من المذكرات) .

وعمل الفقيد في الحكومة العثمانية ، ودفعه عمله فيها لتعلم اللغة التركية ، وأخذ كذلك في تعلم اللغة الفرنساوية بممارسة الدروس الخاصة وبمتابعة قراءة ما كتب مشاهير الأدباء الفرنسيين .

ومن نحو خمسين عاما بدأ يكتب في جريدة الشام الأسبوعية ، وينشر المقالات والبحوث في مجلة المقتطف . وجاء إلى مصر والتحق بجريدة الرائد المصري . وحضر أثناء إقامته بالقاهرة مجالس الشيخ محمد عبده ودروسه . وكتب في الجرائد المصرية ، وبخاصة في جريدتي الظاهر والمؤيد . وأصدر مجلة المقتبس الشهرية التي حفظت له أبحاثا قيمة في الأدب العربي ، وفي التاريخ الإسلامي ، وفي التراث العلمي القديم ، مما أعده بحق ليكون بين كتاب وقته النابهين .

أما خلق الفقيد وميوله فقد ذكر عن نفسه ما يلي : « خلقت عصبي المزاج ، مغرما بالموسيقى العربية ، محبا للطرب والأنس والدعابة ، عاشقا للطبيعة والسياحة » .

وكل ذلك كان يتبينه خلطاء الفقيد ممن كان يفيض عليهم في ساعات صفوه ، بدعاباته اللطيفة ، وطرفه العلمية والأدبية ، ونكاته البارعة ، وأنسه المرح المحبوب ، لولا تلك المفاجآت التي كان يباغت بها أصدقاءه ، خضوعا لأحوال المزاج العصبي ، فيغضبهم حيث لا داعي لإغضابهم ، ويجافي الجلساء حيث لا موجب لجفوة . وكان مع ذلك يظل مختزنا في قرارة نفسه طيب الود لمن أغضب أو لمن جافى .

وفي سنة ١٩٠٨ عند ما حدث الانقلاب العثماني وخلع السلطان عبد الحميد عن عرشه ، عاد فقيدنا من مصر إلى دمشق ، وأصدر فيها مجلة المقتبس الشهرية ، كما أصدر جريدة المقتبس اليومية . وفي ذلك الوقت أتيح للفقيد أن يرحل إلى أوربا ، ثم أن يرحل إليها مرة أخرى قبل الحرب العالمية ، وكتب عن رحلته عدة مقالات ، ألف منها أول كتاب له ، وأسماه : (غرائب الغرب) ، وضمنه رحلات تناول فيها شتى الموضوعات بقلمه الوصاف المسهب مما يشعر القارئ بسعة علمه بالتاريخ ، ووفرة تحصيله واطلاعه ، ويسر الكتابة عنده .

وقد تعرف في رحلته الأولى إلى الكثيرين من المستشرقين ، وممن تهمهم معرفة البلاد العربية وشئونها . وعلى الجملة تدل مجموعة ما كتبه في « غرائب الغرب » على ولعه بالسياحة ، وميله لتعرف المعالم والآفاق ، وشغفه بالسير في الأرض والنظر فيها .

أما حياة كرد علي السياسية فقد اختلفت نظرة الأحرار الوطنيين إليها ؛ وذلك لأن المرحوم

تولى التحرير فى جريدة الشرق التى أصدرها جمال باشا القائد التركى ، ليناهض بها الحركة العربية .

وربما فات الوطنيين أن يقدروا اضطرار الفقيد إلى الكتابة فى هذه الجريدة مخافة كيد القائد ، وتحاشيا لجبروته وغدره . ولما دخل الجيش الفرنسى فى دمشق سنة ١٩٢٠ ولى الفقيد وزارة المعارف ثلاث مرات ، مما أدى بالأحرار العرب إلى الاحتفاظ بموقفهم منه. على أن حياة الفقيد السياسية وإن ظللتها سحب قضت بها الظروف ، فإن حياته الأدبية لم تشبها شائبة، لأنه كان أول رائد للصحافة السورية الحديثة ، وصاحب أول مجلة أدبية راقية . وعندما أسس المجمع العلمى العربى فى سنة ١٩١٩ انتخب كردعلى لرياسته حتى يوم وفاته . وفى هذه الفترة الطويلة من الزمن كان يشجع الشباب على التعليم وعلى درس اللغة العربية وآدابها ، وكان يلقى المحاضرات ويتابعها فى المجمع العلمى الذى كان الندوة المباركة لأهل العلم والدرس ، وكانت مجلة المقتبس التى أنشأها الفقيد منبرا حرا للأدب الرفيع ، وعمرت صفحاتها بمقالاته المدروسة الممحصة .

أما أظهر الآراء التى تبناها فى الشئون الاجتماعية والتاريخية ، فهى فى دعوته لتحرير المرأة باعتدال ، وفى حضه على الأخذ بالصالح من المدنية الغربية مع الاحتفاظ بالأخلاق الإسلامية ، وفى تشجيعه إلى الأخذ بوجهات الاشتراكية المعتدلة ، وفى حملته على الشعوبية وعلى الشعوبيين ، وفى تعصبه للأمويين ، وتفنيد ما كتب فى تجريحهم ، اعتمادا على ما كان يعتقده من تحامل العلويين عليهم .

ولقد كتب فى موضوع المرأة ما يلى : «كنت - ولا أزال - ظهيرا للمرأة محبا لإنصافها، آسفا للاستعباد الذى حاق بها ، محاولا تعليمها كل ما يرفع من شأنها ، داعيا لإقناعها بحجابها الشرعى . ذاهبا إلى أن تخلف المرأة المسلمة عن الأخذ بحظ من التهذيب قذف بالمسلمين من حالق المدنية إلى هاوية الانحطاط . وما طلبت إعطاء المرأة زيادة على حقها، وما جوزت لنفسى أن أخدعها وأتملقها ، توقعا لرضاها ، وكنت - وما برحت - على مثل اليقين أن من يعاون المرأة على مساواة الرجل يخدعها ويضحك منها . وصديقك من صدقك لا من صدقك .

وقال فى موضع آخر (ص ٣٥٩ - أقوالنا وأفعالنا) : « المرأة امرأة وإن ألبستها ثياب الرجال ، ووسدت إليها أعمالهم . ومهما جاهدت لا تحليها بخلق ، ليس فيها ، ولا تخلق فيها ميزات لم تتميز بها . المرأة كما قالوا : ريحانة وليست بقهرمانة ، لم تؤهلها طبيعتها لغير ولادة الأولاد والعناية بتربيتهم وخدمة زوجها والسهر على راحته . وتولى الخطير والحقير من شئون بيتها .

فروض جسيمة فرضت عليها . لو أحسنت تجويدها لكفتها أن تشتغل معظم ساعات نهارها ، وزلفا من ليلها ، ومن كان عليها مثل هذه التبعة : كيف تقوى على تولى المصالح العامة فتقضى وتسوس وتشارك الرجال فى شئون اختصوا بها منذ كانت الدنيا . »

وكان كرد على فى كثير من كتبه يذهب إلى الاشتراكية المعتدلة . إلا أنه كان يقدر الفروق

التى تميز خواص الناس على عوامهم ، ولا يغفل عن الميزات التى تميز صفوتهم على دهمائهم . ويستشهد فى ذلك بقول ابن المقفع : «قد علمنا علما لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها ، وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ، وأن خاصة قط لم تصلح من قبل نفسها ، وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها . وحاجة الخواص إلى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك».

أما آراؤه فى الاقتباس عن المدنية الغربية فقد كتب فى ذلك ما يلى : (القديم والحديث ص ٥) : « إن كل عاقل عرف تاريخ هذه الأمة (يقصد العرب والمسلمين) يرى الخير كل الخير فى احتفاظها بقديمها ، وضم كل ماينفع من هذا الجديد .

على أن يكون للدين والعلم حريتهما ، فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها ، كما تجرى المدنية على الشوط الذى تراه .

وإذا رأى بعضهم فى بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالأولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأى كبار علماء الإسلام منذ القديم » .

وكان فقيدنا — رحمه الله — من دعاة التكتل العربى . ومما كتب فى ذلك قوله :

(أقوالنا وأفعالنا ص ٣٤١) : «إذا تحققت الوحدة العربية تصبح قوة لا يستهان بها فى هذا الشرق ، ويكون لها من موقعها الممتاز بين الشرق والغرب ما يجعل منها كتلة شرقية تنفع العالم ولا تؤذيه ، وتعيد مجد أمة كانت على حياة تامة قرونا طويلة . »

أما ما ألفه المرحوم وما نشره وأخرجه فهو كثير وعديد ، إذ لبث يكتب حتى آخر حياته . وأهم مؤلفاته كانت فى التاريخ والاجتماع وتراجم أصحاب البيان من العرب القدماء ، وحقق ونشر عددا من المخطوطات القديمة ، ودون لذكرياته مذكرات — قد لا ترتبط موضوعاتها — وتجمع بين كثير من آراء صائبة هى وليدة للتجارب فى حياة طويلة وبين ما ينم عن مزاج عصبى ، وغضبات طارئة ، ونزعات شخصية لا يقرها المنصفون .

وأهم مؤلفاته التاريخية والاجتماعية هى : (خطط الشام) و (الإسلام والحضارة العربية) و (أقوالنا وأفعالنا) و (غرائب الغرب) و (القديم والحديث) و (غوطة و دمشق) .

ومن كتب الأدب والتراجم :
(رسائل البلغاء) و (أمراء البيان) و (كنوز الأجداد) .

ومن المخطوطات التى حققها ونشرها : (سيرة أحمد بن طولون للبلوى) و (المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخى) و (تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى) و (كتاب الأشربة لابن قتيبة) و (البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمى) : وهو آخر كتاب للفقيد الذى مكث نحو نصف قرن لم ينقطع فيه عن القراءة والتدوين حتى آخر أيام حياته .

ومهما يكن من اختلاف النظر فى تقدير

الأسلوب العلمى فى مؤلفات الفقيد ، أو فى قلة ثروتها من الطرافة ، أو فى تحليل الحوادث التاريخية واستخراج فلسفتها ؛ فإن فى كتبه ما يؤهلها لتكون من المراجع الصالحة ككتاب : خطط الشام الذى يقع فى ستة أجزاء ، ويعد من أفضل المؤلفات، إذ استعين فيه بكبار الإخصائيين المعاصرين فى اقتصاديات الشام وزراعاته .

وإن فى كتب كردعلى المدونة بأسلوب متناسق وسهل وفخم ، والمستخرجة من أمهات المراجع، والمستقطرة من الأسانيد والأسفار التى لا تتداولها الأيدى ، ما يدل على واسع علمه ، وعلى موهبته فى صناعة الكتب ، وإن رصيده فى ذلك ضخم تعتز به المكتبة العربية ، ويفيد منه المشغوفون بالقراءة والاطلاع ، ويفخر به مؤلفه وناشره .

* * *

أيها السادة :

هذا ما سمح به الوقت المقدر لتحية الفقيد المرحوم الأستاذ كردعلى . وأسأل الله أن يعوضنا فى فقده خير العوض .

المرحوم الأستاذ خليل السكاكيني (١)

للأستاذ الدكتور منصور فهمي كاتب السر

أما ما أتقدم به لتحية المرحوم الأستاذ السكاكيني ذلك الرياضي المرح القائل: «الألعاب الرياضية والاستحمام بالماء البارد والطعام المغذي والمطالعة والكتابة والموسيقى : هذا هو الأسلوب الذي سيتغلب على العالم كله» ...

أما ما أتقدم به لذكرى هذا الفقيد العظيم ؛ فكلمة عاجلة أشير بها إلى ترجمة قصيرة لحياة تلاحقت فيها عليه الهموم والمحن ؛ فهدت من بنيانه المتين، وأودت بمرحه أخيراً ؛ ثم أذكر طرفا من نظراته وفلسفته في الحياة . ثم أشير إلى أسلوبه الأدبي ، ثم أبين اعتزازه بعروبته وشرقيته، ثم أنبه إلى مؤلفاته الغنية بالانفعالات وبالتفكير .

ولد خليل السكاكيني في مدينة القدس سنة ١٨٧٨ ، وتوفي بالقاهرة في سنة ١٩٥٣ . وهو من أسرة عريقة في فلسطين من نحو أربعة قرون . وكان والده قسطندي السكاكيني يشتغل بتجارة الخشب والنجارة ، ويجيد مع لغته العربية : اللغات التركية واليونانية والروسية .

وكان له منزلة بين قومه وفي طائفته وعشيرته، فانتخب ليكون مختارا أو عمدة للطائفة الأرثوذكسية وعضوا في مجلسها الملي .

وقد تخرج خليل من مدرسة إنجليزية بمدينة القدس وبعد أن أتم دروسه فيها رحل إلى إنجلترا ليستكمل من فن التربية والتعليم، وقصد منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليستزيد من الدرس . وعاد بعد ذلك إلى القدس ليعلم بالمدرسة الصلاحية في سنة ١٩١٤ ، وصادق المرحوم رستم حيدر العراق مديرها ، وعاونه في شئونها ، كما زامل فيها المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش المصري في تدريس اللغة العربية .

ولما دخل الجيش البريطاني فلسطين في الحرب الكبرى الأولى قبضت السلطة التركية على فقيدنا بتهمة المناوأة لها ، وسيق من القدس إلى درعا مكبلا ماشيا على الأقدام ، ونقل منها إلى دمشق حيث سجن في انتظار أقسى المحاكمة . ولعله شعر في تلك المحنة بقسوة الظروف على رغم صلابته وجلده . وينم عن ذلك كتاب له لولده يقول فيه: «مرضت في الثانية من عمرك ،

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامه المجمع لتأبين المرحوم الأستاذ خليل السكاكيني في ٢٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٧٣ هـ (الموافق ٥ من يناير سنة ١٩٥٤ م) .

وكان مرضك هائلا لم ير الأطباء له مثيلا . كنت أشبه بقطعة خشب ، لا ترى ولا تسمع ولا تحس . قطعنا الأمل منك مراراً ، وكنا نخشى إذا عشت أن تكون أعمى أصم أشل ، ثم عدت إلى الحياة ، وكأن مامر بك من المرض لم يكن ، فحمدنا الله وعدنا إلى آمالنا فيك . وفى نحو الرابعة من عمرك ـ والحرب الكبرى فى أشد أدوارها ـ أخذنى الجند من فراشى . فودعتك وأنت نائم ، وخرجت وأنا لا آمل أن أرجع ، ثم ساقونى إلى دمشق مكبلا ، وأودعونى السجن إلى أن ترد أوراق اتهامى فأصلب . ثم فررت من دمشق إلى الصحراء ، وكلى أمل أن أعود إلى بيتى فأضمك إلى صدرى فأنسى بك ما مر بى من الأهوال ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ذهبنا إلى مصر ، فلم يلبث أن هاجمك مرض آخر أشد وطأة من مرضك الأول .

فى مرضك الأول كنت قطعة خشب ، وفى مرضك الثانى كنت جذوة نار ، ثم كتبت لك السلامة وعدت إلى الحياة وعدنا إلى الأمل .

ثم توالت الأيام : تارة تحلو وتارة تمر ، تارة نطمئن وتارة نقلق . فالحمد لله ، ثم الحمد لله . فأنت ونحن فى حاجة إلى السرور ، فافرح ما وسعك أن تفرح » .

ولما شاءت الأقدار أن ينجو الفقيد ويعود إلى داره بالقدس سالما جعل هذه الدار موئلا لزملائه وأصدقائه من المجاهدين العرب الذين كانوا يعملون لتحرير بلادهم ، وجمع فى بعضهم، فقتل من قتل منهم شنقا ، وأهين من أهين ، وآلمه ذلك بمقدار ما يتألم الصديق الوفى الوطنى الكريم.

وفى هذا الوقت عين مفتشا للمعارف فى فلسطين، وما لبث أن استقال من عمله هذا احتجاجا على تعيين مندوب سام لم يرق للعرب تعيينه ، وهاجر إلى مصر وعين ناظراً للمدرسة العبيدية بالقاهرة . وراسل الصحف وكتب فى المجلات . وألقى فى مختلف الأندية القيم من الخطب ، وفى معاهد العلم القيم من المحاضرات . ثم عاد إلى القدس بعد أن نقل منها ذلك المندوب ، فعين مرة أخرى مفتشا للغة العربية ، وظل فى هذا العمل يحاول خدمة لغته فى مدارس وطنه، إلى أن أسس لنفسه مدرسة داخلية أطلق عليها اسم مدرسة النهضة، وأشاع فيها روح الوطنية والعروبة ، وجعل لمدرسته شعاراً هو : إعزاز الطالب لا إذلاله ، ورفع النفس لا خفضها .

وبعد أن ازدهرت مدرسته وآتت ثمراتها الطيبة لطلابها ولمؤسسها وأضفت عليه سمعة المربى الناجح والشهرة المستحقة وبعض الثراء الجدير بأمثاله من العلماء القانعين ، صدم بوفاة زوجته الفضلى من نحو خمسة عشر عاما .

وكانت تلك الشريكة البارة هى خير ما يركن له فى هذه الحياة ؛ فهدت لجيعته فيها كيانه القوى ، وألف فى ذكراها بين نثر ونظم كتابا كله دموع وحسرات ينطوى على أدب رفيع ، ومناجيات تهيج بها عواطف الحزن والأسى ، وتدفع إلى ضروب من التشاؤم والتمرد على الأقدار .

وبما كتبه فى ذلك : «مات أبى فحزنت عليه وبكيته دهراً طويلا، ثم قلت وقال الناس: لا اعتراض على حكم القضاء ثم ماتت أمى وقد أثقلتها السنون، فحزنت عليها وبكيتها دهراً طويلا ، ثم قلت وقال الناس : لا اعتراض على حكم القدر .

أما الآن وقد عدت الأقدار على سيدتى وهى أصح الناس جسما وأنعمهم بالا وهى راضية مطمئنة ، وهى محبوبة محترمة عند جميع الناس ، أما الآن فإنى من المعترضين ...

أيتها الأقدار : احكمى بما شئت ، أما أن تكلفينا الدعاء لك والرضا بحكمك فهذا لن يكون . لا يعزينى قولهم : إن الحزن غير طبيعى ولا ضرورى .

لا يعزينى قولهم : إن ألم الموت لا يزيد عن ألم الأمراض التى تتقدم وتؤدى إليه . وأن الحى إذا حل به الموت بطل حسه وألمه ، نعم . ولكن أهله يحسون ويتألمون ، فإذا أبطلتم حس الميت فأبطلوا حس الحى لو كنتم تقدرون ...

لا يعزينى أن أتمثلك فى ندى الصباح ، فى زهر الحديقة ، فى نجوم السماء ، فى كل معنى لطيف رائق ، فى كل شكل أو لون جميل .

ما أحرى هذا الخيال أن يجدد الحزن ويزيده ..»

بعد هذه الصدمة القاسية صدم فقيدنا فى موطنه الذى كان يهتم به ويقدسه ويراه أفضل وطن فى الأرض ، وفى داره التى تنسم فيها صفو العيش لمدى قصير بعد جهد كبير ، وتلمس من أركانها سعادة الحياة العائلية ومتاعها ، فزال البيت وزالت المدرسة وزالت المكتبة العزيزة ؛ بل زال الوطن المحبوب ، واكفهرت فى وجهه الحياة.

ولهذه المناسبة كتب عنه السيد عيسى الناعورى فى الملحق الأدبى لجريدة فلسطين ما يلى :

« كنت أزور السكاكينى فى الدار الأنيقة التى كان يملكها فى حى القطمون : أجمل أحياء القدس الجديدة ، فلا أجده قط إلا محاطا بالإخوان والأصدقاء ، ثم زرته عام ١٩٥٠ فى بيته فى مصر ، وكان يقيم فى المنزل رقم ٧ شارع السلطان حسين فى مصر الجديدة ، فكادت الدموع تطفر من عينى ، إذ رأيت غرفة الاستقبال عارية إلا من بعض كراسى الخيزران القديمة ... بعد الدار الأنيقة الفخمة فى القدس وقاعات الجلوس والاستقبال المفروشة والمؤثثة بالأثاث الجميل الأنيق ... واستقبلنى «أبو سرى» بالبشاشة التى لم تفارقه قط، وكان يخفى وراءها أقسى ألوان الألم الصامت . كان متلهفا يريد أن يعرف كل شىء عن فلسطين ، وكنت أجيبه بما أعرف .

وحينما وقفت لأودعه كادت الدموع تتفجر من عينيه وهو ممسك بيدى لا يريد أن يفلتها .

وقد حملنى أمانة أن أزور القدس باسمه، وألقى سلامه على كل إنسان وكل شارع وكل بيت وكل حجر وكل ذرة من ترابها ... »

وبعد ما تقدم من الصدمات فقد السكاكينى ولده فى أوائل العام الفائت ، وكان ولده هذا موضع آماله فيما يريد أن يكون عليه الابن ، حين يحسن الأب تربية بنيه ، وحين يودعه سره ونفسه ، وحين ينشده لأرفع الآمال ، وحين يعتز ببنوته البارة .

وكانت هذه الصدمة الأخيرة هي القاضية على الفقيد ، فلم يلبث بعدها إلا أشهراً .

وهـذا الزميل الذى أصابته الأقدار بما أصابت من سجن وتشريد ، وفقدان زوجة صالحة ، وموت ولد وحيد فى ريعان الفتوة : هذا الزميل عاش على مبادئ ونظرات فى الحياة يصح أن تعتبر الدعامة لفلسفة تعز المثل العليا ، وتقدر القوة وتشيد بالجمال وبساطة العيش ، وتبشر بإنسانية راقية .

كتب لولده (سرى) ص٨: «أتعيرنى بركوب الجمال؟ والله إن أجمل أيامى وأنبلها هو ذلك اليوم الذى فررت فيه من دمشق فى الحرب الكبرى مع عصبة من كرام الناس ، ذلك اليوم الذى ركبت فيه الجمل واخترقت الصحراء وروحى فى كفى ، لم أشعر بالعظمة شعورى بها فى ذلك اليوم . إذا ركبت أنت الطيارة لاهيا فقد ركبت أنا الجمل جاداً ، ركبته متمرداً على ظلم البشر ، هازئا بالأخطار ...

لقد ركبت الطيارة بعد ركوب الجمل ، ولكن شتان ما بين الطيارة والجمل . ركبت الجمل لأحارب صعب عال ، وركبت الطيارة لأبصق على الدنيا ... »

وكتب فى القوة ما يلى ص٦٣ «لم يكن يروقنى شىء يوم كنت أتردد على جامعة كولومبيا فى نيويورك إلا مراقبة طلابها لاعبين ، يثبون ويطفرون فى الهواء ، كأنهم كرات من المطاط . قد كنت فى حياتى من المبرزين فى كل الألعاب الرياضية .

لم أكن أصارع الطلاب واحداً واحدا ، ولكن كنت أصارعهم جماعات . كنت أقف بينهم كأننى صخرة الوادى ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يدعى أنى كنت أعتدى على أحد ... ما من معركة خضتها إلا مدافعا عن ضعيف أو غاضبا على لئيم أو مغيثا لمستغيث » .

وكتب فى تقديره للجمال وبساطة العيش ومعانى الإنسانية ما يلى ص ٥٩ :

«إنى أعتقد أن البساطة عنوان الرقى . وقد يكون الإسراف فى الترف والإغراق فى الاستكثار من الزخرف وأدوات الزينة وسائر الكماليات دليلا على فقر النفس وخلوها من كل جمال ، فيستعيض عن جمال نفسه بجمال ثيابه ورياشه...

كيف يهون عليك أن تنعم بالعيش وغيرك يشقى به ؟ إذا وطنت النفس على الرضا بالبساطة فلا يهمنى : أقبلت الدنيا أم أدبرت . اشتدت الأزمات أم انفرجت ...

لا تسمو الأمم إلا إذا تنبهت فيها حاسة الجمال . فإذا تنبهت هذه الحاسة رأت فى الفضيلة جمالا فلا تميل إلى الرذيلة . رأت فى العلم جمالا فلا ترضى بالجهل . رأت فى الحق جمالا فلا تميل إلى الباطل . رأت فى الخير جمالا فلا تميل إلى الشر ...

إذا أردت إنهاض أمة فنبه فيها حاسة الجمال ونم ... خليق بنا إذا كنا أبناء آدم ألا نهنأ بالعيش إلا إذا عملنا على إزالة الشقاء والألم والظلم والفقر والمرض من هذه الأرض ... لو وكل إلى الأمر لجعلت الغرض الأعلى للثقافة أن نحارب أسباب هذا الشقاء ... يجب أن نعلم أولادنا أن يتطوعوا لخدمة الإنسانية » .

بعد هذه الصورة من حياة السكاكينى

المفكر يطيب لى أن أشير إليه كأديب :

إن أصالته فى الأدب واضحة ، وكتابته تعبير صادق لأحاسيسه وانفعالاته المتنوعة . وكانت تعبيراته وانفعالاته الدافقة تتجلى سائغة فى أسلوب من السهل الممتنع والتعبير الميسر النقى الخالى من التكلف والصناعة ، إذ كان يناوئ الصناعات اللفظية . وله فى ذلك كتابات ومساجلات مشهورة كان هو أحد أطرافها ، وكان طرفها الآخر المرحوم شكيب أرسلان ، والذى كان من أكبر البيانيين العرب فى العصر الحاضر ،

وكتب السكاكينى فى ذلك يقول (ص ١٧٠ مطالعات) : « الأسلوب الطبيعى للكتابة أن يكتب الإنسان كما يفكر وكما يتحدث . فمن حاول أن يكتب مالا يفكر فيه أو يتحدث به ، ومالا يلائم الحياة فى شىء فقد تكلف . »

ومن أظهر ما كتب فى أسلوبه السهل الممتنع ، تلك القطعة التى وصف بها موت زوجته : (لذكراك ص ٢) : « قضينا ليلتنا البارحة قياما خاشعين خافتين وأيدينا على قلوبنا وأبصارنا شاخصة . فقد اشتدت وطأة المرض على سيدتى وساءت حالها جـــدا ، ودخلت فى غيبوبة من أول الليل .. علت الزرقة شفتيها .. بردت أطرافها ... جعل جسمها يرشح بعرق بارد لزج .. سمعتها تقول لى : متى ؟ وتارة : يكفى ، وتارة : يا خليل .

وفى صباح يوم الثلاثاء جاء الطبيب ففحصها فحصا يسيرا ، وعلى وجهه علائم اليأس ، فقالت له : لماذا تركتنى ؟ وهى آخر كلمة قالها المسيح وهو يخاطب الله فى السماء .

وفى الساعة العاشرة والربع فارقت الحياة ، بمثل هذا الأسلوب الأخاذ الخالى من كل صناعة كان يكتب خليل السكاكينى ويعبر عما يحس .

أما وطنيته العربية فكانت عن إيمان بالغ وصادق ، وكان هو صاحب النشيد القومى الذى غناه ثوار العرب بين دمشق وحوران ، عندما وصل فيصل إلى مشارف الشام مـــع الثورة العربية . وإذا كانت وطنيته العربية تجلت فى نشيده ومجالسه ، فطالما تجلت فى حبه للغة العربية وإيثارها وتقديسها . قال : ص ١٠ حاشية :

« لماذا يستسهل الناس لغاتهم على صعوبتها ولا نستسهل لغتنا على سهولتها بالنسبة إلى غيرها؟ بل لماذا لا أقول إن فريقا كبيرا منا انسلخوا عنا وانتحلوا النزعات الأجنبية ؟

اللغة ليست معرفة ، فقد نجد بين المستشرقين ، من يفوق علماء اللغة العربية فى معرفتها ، ولكنه لا ينزل من اللغة منزلة أهلها منها .

إنما اللغة حياة وتقاليد ، وعقائد وأخلاق ومقدسات ، إنما صاحب اللغة من يعنى بها لنفسها ، يحاول إعلاء شأنها ، من يفتخر بأنها لغته . من يتأدب بآدابها ويفكر على أساليبها . ومن ينظر إليها نظرة تقديس ، فكل كلمة فى لغته أجل من كل كلمة ترادفها فى لغة أخرى .

إذن قبل أن نعمل على تيسير قواعد لغتنا يجب أن نجعل طلابنا عربا » .

وخليل السكاكينى يمضى من الاعتزاز بلغته وبقوميته العربية إلى الاعتزاز بكتاب العرب وشعرائهم وأدبائهم . فكتب فى ذلك يقول : (ص ٦٨ ما تيسر) :

« إن فى أدبنا مالا يقل عن الأدب الغربى قوة وحياة ، إذا لم يزد عليه ...

يقول نيتشه : عش فى خطر .

ويقول المتنبى :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب العز فى لظى ، ودع الذل
(م) ولو كان فى جنان الخلود !

يقول نيتشه : نحتاج إلى الكبرياء لا إلى التواضع .

ويقول المتنبي :

إن أكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

لو رحت أقابل بين ما قاله المتنبي وما قاله نيتشه لوجدت ـ مع احترامى لنيتشه واعترافى بفضله ـ أن المتنبي يضع مائة نيتشه تحت ضبنه ... »

ثم تطاول من الاعتزاز بعروبته إلى الاعتزاز بشرقيته فيقول (ص ٩٦ سرى) : « حضارة الشرق كانت حضارات مبادىء. ذهب المسيحيون إلى الغرب يبشرون بأن الله أب ، ثم ذهب المسلمون إلى الغرب يبشرون بأنه لا إله إلا الله. وأما الغرب فاذا عمل ؟ رأى هنا زيتا فمد يده ليأخذ الزيت . رأى هناك مغاوص لؤلؤ فمد يده ليأخذ اللؤلؤ .. خذ الحرب الكبرى التى ذهبت فى سبيلها ملايين البشر .. أقامت لتحرر العبيد؟ أقامت لخدمة الإنسانية المعذبة ؟ لا. لا. إنما قامت لشهوات ومطامع !

كدت أكفر بالشرق وأومن بالغرب ، أما اليوم فإنى بالشرق من المؤمنين ، وبالغرب من الكافرين » .

ولولا ضيق الوقت لأطلت فى خلال السكاكيني وفى فنه كمعلم وكمرب على طريقة الإغريق وفى أساليب الحوار والمناظرة .

أما أشهر تآليفه فهى : الاحتذاء بحذاء الغير ١٨٩٦ بالقدس . مطالعات فى اللغة والأدب ١٩٢٠ . فلسطين بعد الحرب الكبرى : ١٩٢٥ . سرى : ١٩٣٤ . حاشية اللغة : ١٩٣٨ . لذكراك : ١٩٤٠ . وعليه قس : ١٩٤٣ ما تيسر : ١٩٤٣ - ١٩٤٦ . الجديد : وهو خمسة أجزاء ... إلى رسائل أخرى . إلى مذكرات ويوميات لم تطبع بعد .

والممعن فى مؤلفات السكاكيني يجد فيها معالم التفكير الحى يتحلب تارة ، وتارة ينهمر من نفسية صريحة لا يستهويها التقليـــد .

وأحسبنى لا أحيد عن الصواب إذا قررت أن السكاكيني كان فيلسوفا ، عند ما يفهم من الفلسفة أن يخرج التفكير من ينبوعى العقل البصير والقلب الحساس ، فى صفاء وانسجـــام ، ليتآزرا فى إفهام الغير ما يجب أن يدرك ويحس ويؤثر فى الوجدان .

ولعل نزعات السكاكيني الفلسفية وطرافته تبدو أحيانا كمن يتناقض مع نفسه فى آرائه ، ويظهره فى صور تتعارض . ولكن الناظر المدقق يرد ذلك إلى حساسية فى نفسية الفقيد ، وإلى صراحتها ، وصدقها واستعدادها لضروب مختلفة من الانفعالات ، فهو من البشر الذى قد تتنازع عواطفه ، إلا أنه من البشر الراقى الذى يتسامى ما أمكنه التسامى ، ويحلق ما أمكنه التحليق .

ولقد صدق السيد إسحاق الحسيني إذ كتب عن الفقيد فى مجلة الآداب البيروتية ما يلى :

« إن السكاكيني أعظم من آثاره ، فأدبه الرفيع لم ير الناس منه إلاومضات ، ولو أسعفه الزمن وأعانه على التعبير عن كامل أحاسيسه وآرائه ، لبدا عملاقا بين أقزام » .

والآن بعد أن أشرت إشارة عابرة إلى ماتيسر من حياة الفقيدين العزيزين : محمد كردعلى ، وخليل السكاكيني ، وأودعت كلمتى لهما تحية متواضعة ، فإنى أشعر أن فى تلك التحية تحية للغة العرب التى أودعاها خير ما يبقى الإنسان من أنوار أفهامه ونبضات قلبه ومرامى أحلامه .

وإن فى تحية اللغة تحية للعروبة نفسها حين تتوثب عبقريتها فى صدور بنيها الأدباء النابهين لترفع إلى البشرية رسالة متميزة من الثقافة الخاصة التى تزود التراث الإنسانى بلون من الأدب الأصيل ، له طعمه الخاص ، وبزهر له عبيره المنفرد ، وبضوء ممتاز تتكشف به انفعالات العروبة وأحاسيسها .